مقياس السيميولوجيا العامة

ماستر1 سمعي بصري

الأستاذ زياد اسماعيل

المحاضرة السادسة

سيميولوجيا الثقافة:

ممّا لا شكّ فيه أنّ اللغة ترتبط بمفهوم اجتماعي في ممارستها واكتسابها، ففي أحضان المجتمع نشأت اللغة وولدت يوم أحسّ أفراده بالحاجة إلى التفاهم فيما بينهم، كما أنّها ترتبط بمفهوم الثّقافة كما يحدّده الأنثروبولوجيّون فكلّ فرد من أفراد المجتمع يمارس مجموعة من السّلوكيات الماديّة والمعتقدات المعنوية التي تصل غلى عقله ووجد أنه من خلال اللغة التي تعتبر وعاء لهذه الثقافة، ولقد كان هذا الارتباط الوثيق بين اللغة والثّقافة يقف وراء الاهتمام الذي أبداه الأنثروبولوجيّون لدراسة لغات المجتمعات التي اهتمّوا بها لأنها تعدّ المفتاح الذي يساعدهم على الولوج إلى هذه المجتمعات ومعايشتها[1]، فالمجتمعات لم تعرف الثقافة إلاّ عندما عرف الإنسان كيف يشير إلى الأشياء والعلاقات، بمعنى أنّ ظهورها ارتبط بظهور الرموز أو العلامات التي تكوّن نظام اللغة، وإذا كانت كلمة ثقافة تشير في كتابات الأنثروبولوجيّين إلى أسلوب الحياة السائدة في مجتمع ما فإنّ هذا يعني وجود علاقة وثيقة بين اللغة والثقافة، وعليه تنطلق" سيميولوجيا الثقافة" من اعتبار الظّواهر الثّقافية موضوعات تواصلية وأنساقا دلالية، والثّقافة عبارة عن إسناد وظيفة الأشياء وتسميتها وتذكرها، وعلى هذا فالسيميولوجيا ترتبط باللسانيات وخاصة اللسانيات البنيوية والتحليلية ولسانيات الخطاب.

وعلى ذلك فالثقافة ليست فن ولا المتاحف والمسارح والأعمال الأثرية الجميلة ولا هي المعلومات الرقيقة المستوى الشاملة في علوم العصر، ولا هي حسن المظهر وسموّ السّلوك الخارجي ولا الرّوح المعنوية، أو الأخلاق الرفيعة ولا روح الحضارة أو قمّة التقدّم المادي في مجتمع من المجتمعات، ولكن الثقافة بالمعنى المجرّد العام هي العبقرية الإنسانية مضافة إلى الطبيعة بغية تحوير عطاءاتها وتنميتها، لذلك فهي الحذق والإتقان وضبط الأحوال والمعرفة بالشيء الجيّد أو الرّديء وإقامة ما يعرف عل أحسن وجه، وثقّف الشّيء ويثقفه ثقفا أي حذقه وأتقنه، وكان سريع الفهم لجيّده

---

[1]- حساماالدينكريمزكي:**اللغةوالثّقافةدراسةأنثروبولوجيةلألفاظوعلاقاتالقرابةفيالثّقافةالعربية**،ط2،دارغريبللطباعةوالنشروالتوزيع،القاهرة 2001،ص57.

ورديئة[2]، فالثقافة إذن حسب " Ralph Linton":« هي كل مركب يضم الأشغال اليدوية والمعتقدات والفنون والعادات المكتسبة من الجماعة وكل ما ينتجه الإنسان من الأشياء، كأن الثقافة حصيلة الاستجابات التّكيّفية للإنسان، فهي مجموعة متشابكة من الوسائل التي تتخذ شكل الأنماط وتختصّ بتلبية حاجات الحياة، وهي أيضا شبكة من الأهداف التي تقصدها منجزات الأفراد والمجتمع [3]»

بينما يعرّف "إميل هنريو" الثقافة: « بأنها ما يبقى للإنسان حينما ينسى كلّ شيء، قد يلخّص معاني كثيرة من حيث أنّه يصهرها في هذه البقية المحصّلة المقاومة للنّسيان الملازم لفترات التّلقي وأطوار التعليم المستحيلة إلى كفاءات واستطاعات، وبصفة أوسع أدقّ نقول أنّ الثّقافة تكمن في اكتساب القدرة على الاطّلاع بالإرث التاريخي والالتزام أيضا بمهمة صعبة بقدر ما هي ضرورية ألا وهو الانضواء الفاعل الإيجابي في الحداثة المبدعة والمعرفة من أجل ترقية الحياة»[4].

فكل ثقافة حيّة ذات شأن إشعاع وقائمة أساسا على وجود إن هي إلا صنيع تاريخ مشترك ونسيج محايث يتنوّع وينمو داخل علاقات القرب المجالي والجوارية الذّهنية والفهمية كما تدل عليها سلسلة إعلامية متواترة تصحب قصة كل ثقافة، لهذا تعتبر الثقافة نتاج التفاعل بين الإنسان ومجتمعه، حيث يمثّل الفرد ثقافة مجتمعه الذي نشأ فيه، بينما يرى البعض الآخر أنّ الثقافة أنماطا واضحة من السلوك يحصل عليها الإنسان وتنقل إليه عن طريق رموز تتكوّن من الانجازات المميّزة للجماعات الإنسانية من بينها انجازاتها في الفنون والصناعة، كما أنّ لبّ الثقافة يتكوّن من التقاليد والقيم الخاصة[5]، ويبدو ضمن هذا المنظور أنّ الثقافة ترسّخ التجربة السابقة بواسطة التذكّر أو الصناعة التّذكّرية، فالإنسان يراكم ويعدّ الأخبار المستعملة لإدخال تصحيحات ضرورية في البرامج التذكّرية ويعني ذلك أن حصيلة عمل الإنسان تكمن في سلوك ذو معنى وهذا السلوك ليس سوى انجازا لبرنامج معين الذي هو في حقيقة الأمر الثقافة.

وبناء على هذا التصوّر فإنّ السيميولوجيا هي العلم الذي يعنى بدراسة الظواهر الثقافية- ويجب عليها_ أن تصير موضوعات للتواصل، ومن ثمّة تعود كل ظاهرة ثقافية بالضرورة إلى السيميولوجيا.

وإذا كانت السيميولوجيا تعنى بالثقافة في شموليتها وكانت العلوم تعنى بظواهر خاصة من سيميولوجيا الثقافة، فإن السيميولوجيا تشمل مختلف العلوم وترادف إلى حدّ ما الابستيمولوجيا[6].

---

[2] رشوان حسين عبد الحميد أحمد: **الثقافة دراسة في علم الاجتماع الثقافي**، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 2006، ص05.

[3] نخبة من المتخصّصين: **مبادئ علم الاجتماع**، بط، الشركة العربية المتحدة للتسويق والتوريد، القاهرة 2008، ص 194.

[4] حميش بنسالم، **فلسفة الوجود والجدوى، نقد ثقافة الحجر وبداوة الفكر**، بط، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، بيروت، لبنان 2004، ص 16.

[5] عبد السميع غريب: **الاتصال والعلاقات العامة في المجتمع المعاصر**، بط، مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية 2003، صص 232-233.

[6] حنون مبارك: **مرجع سبق ذكره**، ص89.

يرتبط اتجاه سيمياء الثقافة بمجموعة من الرواد والباحثين السوفيات (المعروفين باسم جماعة موسكو أو تارتو) من أمثال يوري لوتمان واوسبيكسي وايفانون وتوبوروف وغيرهم، وآخرون ايطاليون امبرتو ايكو وروسي لاندي، وقد أفاد هذا الاتجاهمن فلسفة كاسيرر الذي رأى في الوجود الإنساني وجودا مخالفا للوجود الحيواني، ولذلك راح يلتمس الفروق بين الوجوديين، من منطلقات فلسفية محضة، انصبت كلها على محاولة تحديد خصائص النوع البشري والتي يمكن اختصارها فيما يلي:

- يتميز الإنسان عن الحيوان بأنه يمتلك جهازا رمزيا يجعل حياته تختلف عن الحيوانات اختلافا نوعيا وليس كميا فقط، ولذلك فهو لا يخضع لجدلية المثير والاستجابة بشكل ألي وعفوي، لأن هناك دوما بين المثير والاستجابة عملية فكرية بطيئة ومعقدة.

- إن الإنسان يعيش داخل شبكة رمزية تتكون من النسيج المعقد للتجارب الإنسانية، وما اللغة والأسطورة والفن والدين إلا أجزاء منهذه الشبكة الرمزية، فالإنسان كما يقول كاسيرر قد تلفع بالأشكال اللغوية والصور الفنية والرموز الأسطورية والشعائر الدينية، حتى أصبح لا يرى شيئا ولا يعرف شيئا إلا بواسطة هذه الوسائل المصطنعة، وقددفع هذا الأمر بكاسبرر إلى رفض تعريف الكلاسيكيين للإنسان باعتباره حيوانا ناطقا فأبدل هذا الحد بحد أخر أكثر دقة واستيعابا لطبيعة الحياة الحضارية الإنسانية في ثرائها وتنوعها وهو الحد الذي يعتبر الإنسان حيوانا رامزا.

- في ظل تعزز دور الرمزية، يرتهن الإنسان ويظهر الفرق عند هذه المرحلة بينالعلامة والرمز باعتبار الأولى إجرائية ووجودية وباعتبار الثانية وظيفية أي عنصر من العالم الإنساني للمعنى.

يتأكد مما سبق أن هذا الاتجاه ينطلق من اعتبار الظاهرة الثقافية موضوعا تواصليا ونسقا دلاليا يتضمن عدة أنساق (لغات طبيعية واصطناعية وفنون وديانات وطقوس..) وبالتالي فإن سلوك الإنسان حسب هذا الاتجاه دائما ما هو إلا تواصل داخل ثقافة معينة هي التي تعطيه دلالته ومعناه، وفي هذا الإطار ترى جماعة تارتو أن كل الأنساق السيميائية تقوم على أساس الوحدة والتعالق حيث يسند كل منها الأخر فليس لأحد من هذه الأنساق آلية تجعله قادرا وحده على القيام بوظيفته، ومن هنا تأتي ضرورة تحديد البناء الترتيبي لغات الثقافة وتوزيع المجالات بينها، كما يستوجب أيضا تحديد الحالات التي تتدخل فيها هذه المجالات أو تتقاطع[7]

[7]- فايزة يخلف: مرجع سبق ذكره، ص ص 50/49.